محاضرات في أصول النقد العربي القديم
المحاضرة الأولى
أوّليات النقد قبل الإسلام

النقد في أصل الوضع اللغوي من الفعل "نقدَ" ومعناه: نظرَ في الدراهم ليميزها ويعرف جيدها من رديئها. ولهذا المعنى يُطلق النقد اسما على الدراهم المستعملة للتداول بين الناس في الشراء والبيع.

وتوسُّعا في الاستعمال اللغوي لنتقل الفعل "نقد" للدلالة على فعل التمييز بين الجيد والرديء، فيقال: نقدَ الكلامَ بمعنى: أظهرَ ما فيه من المحاسن والمعايب. ولأن الأدب شعرا ونثرا جنسٌ من الكلام فقد شمله معنى النقد، وأصبح النقد الأدبي مصطلحا قائما بذاته يطلق على فعل النظر في الآثار الأدبية لتمييزها جيدها من الرديء.

الحس النقدي عند العرب

كان العرب أهلَ فصاحة وبلاغة، يُقدِّرون إحسان الكلام وإجادة التعبير عن الأغراض. وكان الشعر خاصةً مظهرَ بلاغتهم ومعرض تجاربهم وأخبارهم ومآثرهم، حتى قيل: "الشعر ديوان العرب"، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "الشعر علم قوم لم يكن لهم أصحّ منه".

في بيئة بدوية لم يكن لها حضارة فكرٍ أو صناعة أو زراعة، كان اهتمام العربي متجها نحو مصادر عيشه التي لا تعدو التجارة وملاحقة ما تجود به الطبيعة من المراعي. وقد علّمه ذلك الحكمةَ ومكارم الأخلاق، وأدى به إلى خوض حروب وصراعات. وكل هذا كان يوجّه اهتمامه إلى سلاح فاعل في حياته المضطربة من حيث اضطرارُه فيها إلى الترحل والصراع، والفارغة من حيث خلوُّها من المشاغل والاهتمامات الحضارية التي تستغرق الوقت. كان ذلك هو سلاح اللغة، يهتم بها قائلا ومستمعا، ينشأ فطرةً على إتقانها، ويقولها على البديهة فيحسنها، ويتبارى أحيانا مع بني قومه في مضمار بلاغتها؛ فهي وسيلة العربي إلى غرضه، ومؤنسه حين فراغه، وسلاحه في مواجهة الخطوب مصاعبَ كانت أم حروبا، وديوانه الذي يسجل فيه أمجاده ومفاخره.

في بيئة كانت صناعة العربي فيها اللغة، كان طبيعيا أن يتجه الاهتمام إلى إتقان هذه الصناعة، وأن يكون من مظاهر ذلك أن يمتلك العربي أذنا تطرب للكلام البليغ، وظقا مميّزا لبلاغة الأداء مهتديا إلى مواضع الإصابة والخطأ؛ فيستحسن مرة ويستهجن أخرى، دون أن يبسُط في أكثر الأحيان سرَّ استحسانه أو استهجانه؛ فإذا علّل كان تعليله فطريا ساذجا بسيطا لا يلمس إلا جزءا صغيرا من أجزاء الكلام.

أوّليات النقد العربي قبل الإسلام

ساعد على ظهور بوادر النقد الأدبي لدى العرب إعجابهم بالشعر وطربهم له واجتماعهم على سماعه وتداوله في الأسواق والمنتديات، ما سمح بإبداء ملاحظات وعقد موازنات تتناول عددا من الأبيات يجري تقييمها تقييما جزئيا انطباعيا لا يستند إلى أسس موضوعية شاملة مستقصية، أو عددا من الشعراء يُحكَم على شعرهم حكما مجملا دون تقديم تعليل واف وموضوعي.

وإذا شئنا تعداد المسائل التي أثارها النقد الأدبي عند الجاهليين فإننا نسجل أن مقاييسهم توشك أن تنحصر فيما يأتي:

1.استقصاء المعنى وإصابة الغرض:

تكشف ملاحظات الجاهليين تقديرهم لاستقصاء الشاعر المعنى الذي يتناوله، بحيث يبلغ به درجة عالية من إفادة الغرض الذي يرومه، وتقديرهم لاكتمال عناصر الجودة لدى الشاعر ، بحيث يحافظ شعره على مستوى من الإتقان لا ينزل عنه.

ومما يدل على ذلك عيبهم على الأعشى قوله:

ونُبِّئتُ قيسا ولم آتِهِ وقد زعموا سادَ أهلَ اليَمَنْ

فقوله (وقد زعموا) ينقص من قدر المعنى الذي أراده، ويزرع في الذهن قدرا من الشك يحول دون بلوغ المعنى مرتبة الكمال.

وكذلك الشأن في بيت حسان بن ثابت:

لنا الجفناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضحى وأسيافُنا يقطُرْنَ من نجدةٍ دما

فقد عاب عليه النابغة الذبياني، وهو أحد كبار شعراء الجاهلية، استعمال صيغة القلة في "الجفنات" و"الأسياف"، ما يقلل من دلالة العبارة على كثرة الإطعام ومن ثم شدة الكرم؛ كما عاب عليه استعمال "يقطرن" بدل "يجرين" و"يلمعن" بدل يُشرِقنَ"، لأن الأولى في رأيه لا تدل على تمام المعنى المقصود، وهو كثرة إراقة الدماء نجدةً للمستنجد، دليلا على شدة البأس وقوة الشجاعة.

أما تقديرهم للشاعر الذي تكتمل عنده عناصر الجودة وتشمل جل شعره فيدل عليه مواقفهم من بعض الشعراء الذين أجادوا في عديد الأغراض، وتميز شعرهم بإحكام النسج فلم يخلطوا شعرا جيدا بشعر غث. فحين تحاكمَ أربعة من الشعراء هم الزّبْرقان بن بدر ومُخبَّل السعدي، وعبدة بن الطبيب، إلى رجل من بني يربوع، قال لأحدهم: "أما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جَزورا قد نُحرت، فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك". وقال للآخر: "أما أنت يا مخبّل فإن شعرك قصّر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم"، فدلّ هذا على أنه فحصَ شعرَهما فوجده دون مرتبة الكمال، إذ اختلط في شعر الأول الجيد والرديء، وكان شعر الثاني متوسطا بين الجودة والرداءة. وقال لآخر: وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أُحكِم خرزُها فليس يقطر منها شيء" إشارةً إلى قوة بناء الهيكل والشكل في القصيدة بحيث لا توجد الكلمة القلقة والقافية المضطربة واللفظة الزائدة، وليس فيه مما يعرض لشعر الآخرين من معايبَ شيء. ولا بد أن يكون شعرٌ يوصف بهذا الوصف قد بلغ حدا عاليا من الجودة والمتانة.

2.الخلو من العيوب الفنية

والمقصود بها الأخطاء اللغوية الدلالية والنحوية والعروضية. وقد تفطن الجاهليون إلى ظاهرة الإقواء في شعر النابغة، كما في قوله:

سقطَ النصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فتناولتْهُ واتَّقتْنا باليدِ

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بنانَهُ عنَمٌ يكادُ من اللطافةِ يُعقَدِ

فقد فرضتْ عليه القافية أن يأتي بـ(يُعقد) مكسورةً وحقُّها الرفع.

وشبيه بهذا النقد المتعقب لمدى سلامة استعمال الألفاظ، قولُ طرَفة بن العبد، وهو صبي، حين سمع شاعرا يقول:

وقد أتناسى الهمَّ عند ادِّكارِهِ بناجٍ عليه الصيعريةُ مِكدَمِ

"استَنوَقَ الجملُ"، إشارةً منه إلى استعمال الشاعر لفظ "الصيعرية" في غير محلها؛ إذ الصيعرية سمةٌ في عنق الناقة لا البعير.

3.الوقوع من النفس موقعا حسنا

وهو حكمٌ ذاتي انطباعي مصدره الإعجاب بما في بيت شاعر من الشعراء من تركيب بديع أو معنى لطيف موافِقٍ لهوى صاحب الحكم مُقارِبٍ لمذهبه الفني إذا كان شعرا. ففي الشعر والشعراء لابن قتيبة أنه دخل الحطيئة على عتيبة بن النحاس العجلي، فسأله من أشعر العرب؟ فقال: الذي يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يفِرْهُ، ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتمِ

يعني زهيرا. قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

من يسألِ الناسَ يحرموهُ وسائلُ اللهِ لا يخيبُ

يعني عبيدا. قال: ثم من؟ قال: أنا"

وتفضيل شاعر ما استنادا إلى بيت شعر واحد عادةٌ شائعة في العرف النقدي خلال المراحل الأولى قبل أن يتطور النقد ويخطو خطواته الأولى على طريق التعليل ثم التدوين. ولا يبدو هذا التفضيل مؤسسا تأسيسا موضوعيا مقنعا، بل هو الحكم الذاتي الانطباعي المنبني على وقوع البيت موقعا حسنا من هوى صاحب الحكم، لا غير.